

الدولة الإدريسية الهاشمية ودورها السياسي والحضاري في المغرب في عهدي الإمامين ادريس الأول وادريس الثاني

د. صالح محمد فياض أبو دياك

كلية الآداب - جامعة اليرموك

الزهراء^(١)، لكنها لا تنتمي إلى أي فرقة من فرق الشيعة، فهي لم تقم بدعاية مسبقة لها قبل تكوين الدولة مثلما حصل مع الدولة الفاطمية، ولم تتبنَ مذهباً معيناً من مذاهب الشيعة، وإنما يرجع تكوينها إلى الظروف السابق ذكرها التي عملت على تكوينها، وتشير الروايات التاريخية إلى أن ادريس هرب مع مولاه راشد إلى مصر ومكث فيها مدة ولم يغادرها إلا عندما افتضح أمره. فأتجه إلى المغرب ماراً بالقيروان^(٢) وتلمسان التي تعتبر بوابة المغرب الأقصى، ودخل مع مولاه راشد بعد أن اجتاز نهر ملوية إلى بلاد السوس ومكث فيها مدة لكنه لم^(٣) يحقق مطلبه، فغادرها متجهاً إلى مدينة ولبلي «Volubilis»، وكان اختياره لها مقصوداً حيث تسكن قبيلة أوربة ذات العدد الكبير والبأس الشديد، إلى جانب موقعها الحصين حيث يحيط بها سور روماني قديم، ويجاورها جبل زرهون العظيم^(٤)، مع توفر المياه والأشجار وخاصة شجر الزيتون، إلى جانب توسطها للمدن المغربية وهي

بعد قيام الدولة الإدريسية بزعامة الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في أقصى المغرب، كرد فعل ضد الخلافة العباسية ببغداد وامتداداً لمعركة الفخ^(٥) سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م، التي كان من نتائجها فرار ادريس بن عبد الله إلى أرض المغرب، وأخيه يحيى إلى أرض السدليم بخراسان. لكن الخليفة هارون الرشيد تمكن من قتل يحيى، بينما نجا ادريس، من قبضته وتمكّن من تكوين دولته في مكان ناء في المغرب الأقصى^(٦) حيث الجبال العالية، والكثافة البشرية، والبعيد عن دار الخلافة، ومحبة المغاربة لآل البيت^(٧)، كل هذا ساعده على تكوين دولته ذات الصفة الملكية الوراثية، البعيدة عن التشييع والتي كانت نظرتها تتفق مع نظرة الفرقة الزيدية بالإمامة باجازه تعيين المفضل مع وجود الفاضل وهذا ما يتماشى مع نظرة أهل السنة^(٨)، فهي في نظر الكتاب الدولة الهاشمية^(٩)، وحكامها يلقبون بالفواطم نسبة إلى فاطمة

- (١) كان يقع بين مكة والمدينة، راجع، ابن الططقي، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م، ص ١٩٠، الطبري أبو جعفر محمد بن جرير - تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر د - ت، ص ١٩٢.
- (٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، دار احياء التراث العربي - بيروت ط ٧ سنة ١٩٦٤ م، ج ٢، ص ١٤٠ - ١٤١.
- (٣) اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ج ٢ تعريب محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ط (٢) ١٩٨٢ م، ص ٥٥.
- (٤) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف الاسكندرية مصر ١٩٧٩ م، ص ٤٢٢.
- (٥) لقبال - موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تاسيسها الى منتصف القرن الخامس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩ م، ص ٢٧٠.
- (٦) بسمة الحميري بإدريس بن ادريس الفاطمي، راجع، الحميري - محمد عبد المنعم، السروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق - احسان عباس، مكتبة لبنان بيروت ١٩٧٥ م، ص ٤٣٤.
- (٧) تشير بعض الروايات الى ان ادريس لم يدخل القيروان خشية من الأغلبة. راجع، سعد زغلول. تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٢٦.
- (٨) عبد العزيز - سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية د - ت، ص ٢٨٢.
- (٩) العربي - اسماعيل (دولة الادارسة) دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان ١٩٨٢ م، ص ٥٨.

المسماة اليوم بقصر فرعون. وبتأييد من أمير قبيلة أوربة أبو ليل اسحاق بن محمد عبد الحميد^(١٠)، الذي كان على مذهب المعتزلة بايعة أفراد القبيلة بعد أن عرفوا نسبه الشريف سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م، وكانت المبايعة بداية الدعوة العلوية بين القبائل المغربية من زناتة البترية، وزواغة، وزرارة، ولماية، وسدراتة، وغيانة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، ومسراتة^(١١)، وبقية القبائل المغربية في المنطقة التي جاءته وفودها معلنة طاعتها، عندها بدأ الامام ادريس يرسم خطى دولته، فقام بتأسيس حاضرة له لتثبيت سلطانه في المنطقة تحدوه الرغبة في توسيع نفوذه على حساب الدول المجاورة^(١٢)، أملاً في اخضاع المغرب لسلطانه لتحقيق أحلامه في السيطرة على المشرق أو جزء منه ليعيد حق أبائه المسلوب. فالوثائق التاريخية تبين أن الأدارسة كانت لهم اتصالات وثيقة ومراسلات عديدة مع أهل افريقية ومصر، فقد أرسل الإمام ادريس الأول رسالة الى المصريين يدعوهم لطاعته:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فالحمد لله رب العالمين لا شريك له الحي القيوم، والسلام على جميع المرسلين، وعلى من اتبعهم وأمن بهم أجمعين.

أيها الناس: إن الله بعث نبيه محمد ﷺ بالنبوة، وخصه بالرسالة وحياه بالوحي، فصدع لأمر الله وأثبت حجته، وأظهر دعوته، وإن الله جل ثناؤه - خصنا بولايته، وجعل فينا ميراثه ووعدنا فينا وعداً سيقى له به، فقبضه إليه محموداً لا حجة لأحد على الله ولا على رسوله ﷺ، فله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين. فخلفه الله جل ثناؤه بأحسن الخلافة، غداًنا بتعمته صغاراً، وأكرمنا بطاعته كباراً، وجعلنا الدعاء إلى العدل القائم بالقسط المجافين للظلم، ولم نمل - إذا وقع الجور - طرفة عين من نصحننا أمتنا والدعاء إلى سبيل ربنا، جل ثناؤه، فكان مما خلفته أمته فينا أن سفكوا دماءنا، وانتهكوا حرمتنا، وأيتموا صغيرنا، وقتلوا كبيرنا، وأثكلوا نساءنا، وحملونا على الخشب،

وتهادوا رؤوسنا على الأطباق، فلم نكل، ولم نضعف، بل نرى ذلك تحفة من ربنا - جل ثناؤه - وكرامة أكرمنا بها، فمضت بذلك الدهور واشتملت عليه الأمور، وربى منا عليه الصغير وهم عليه الكبير^(١٣).... ويبدو أنه كان يهدف إلى تأليب المصريين على العباسيين وإيجاد أنصار له لتكوين دولته فيها متى سنحت له الفرصة، وإلا لما خصهم بالمراسلة دون غيرهم من أبناء المشرق، الذين قاموا باخفائه وتسهيل السبل اليه في الهروب عند افتضاح أمره^(١٤).

أما بالنسبة للمغرب فقد قام بتجهيز الجيوش التي كان يقودها بنفسه إلى مختلف الأقاليم والمناطق المجاورة له قصد توسيع رقعة حكمه، ونشر الإسلام بين القبائل التي ما زالت على دين النصرانية أو المجوسية أو اليهودية أو الشرك، فبدأ بقبائل برغواطة التي عرف عنها الزيغ وانحراف العقيدة، والتي اتخذت من بلاد تامسنا موطناً لها، فاستولى عليها ووصل إلى شالة وبلاد (فازار) بالمغرب الأقصى، ثم توجه شرقاً إلى تلمسان فدخلها صلحاً بدون قتال سنة ١٧٣ هـ/ ٧٨٩ م^(١٥) فأخضع قبيلتي مغراوة وبنو يفرن الزناتيتين وأبقى محمد بن خزر المغراوي واليهما السابق عليها. وبهذه السياسة الحربية الحازمة استطاع ادريس بن عبد الله أن يسيطر على الأقاليم الواقعة ما بين تلمسان غرباً ووادي أم الربيع، وجعلها مجالاً لنشر الدعوة الإسلامية بين سكان هذه المنطقة، إلى جانب اعتبارها سباجاً لحماية دولته من أعدائه، وعاد إلى مقره بمدينة ويلي في شهر صفر سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م^(١٦)، ووصلت أخبار انتصاراته الى المشرق التي ازعجت الخليفة هارون الرشيد، فعبر لوزيره يحيى البرمكي عن مشاعره بقوله: «إن ادريس بن عبد الله ولد علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي ﷺ، قد قوي سلطانه وكثرت جيوشه، وعلا شأنه... وفتح مدينة تلمسان وهو باب افريقية ومن ملك الباب يوشك أن يملك الدار، وقد عزمت أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله... ثم أي فكرت في بعد البلاد، وطول المسافة،

(١٠) هناك روايات تاريخية تسميه (عبد المجيد)، راجع، العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٦٣ - ٦٤.

(١١) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٣٠، العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٦٤.

(١٢) العروي - عبد الله، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، ترجمة - ذوقان قرقوط، ط (١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٧ م، ص ١١١.

(١٣) حمادة - محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال افريقية، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت ط (١) ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ١٣٦، نقلاً عن،

Conde. I.A. Historia de Ladinacion de les Arabes en Espana. Paris, 1840, P. 115.

(١٤) سعد زغلول عبد الحميد، المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٢٤، العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٥٨، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ١٤٠ - ١٤١.

(١٥) ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق - أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء المغرب سنة ١٩٦٤ م، ج ٢، ص ١٩٢، سعد زغلول عبد الحميد، ج ٢، ص ٤٢٠.

(١٦) السنوسي محمد بن علي، الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، ط - مصر سنة ١٣٤٩ هـ، ص ٤٥.

المغربية والأقاليم التابعة للدولة يوم الجمعة في مستهل ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ/٧٩٢ م، وقيل يوم الجمعة في ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م. على نفس المنبر الذي أخذت عليه البيعة لأبيه من قبله في جامع مدينة وليلي، بعد أن خطب على المنبر خطبة بين فيها فضل آل البيت، مشيراً إلى مناجاة السياسي في التزام الحق، والأمر بالمعروف، وطاعة الإمام^(١٧)، وفعلاً طبق ما قاله فقد سار سيرة سلفه بنشر العدل واطهار الحق، فعظم شأنه وقويت شوكته بين القبائل، لكن رغم هذا فقد خرج عن طاعة الإمام ادريس الثاني بعد وفاة أبيه عدد من المناطق والأقاليم التابعة للدولة لغياب حكم الأئمة وكثرة الاضطرابات في البلاد، إلى جانب العلاقة العدائية بين الدولة والأغلبية، بسبب العداء الذي يكنه العباسيون لهم مما انعكس على الأغلبية الذين وقفوا أمام توسعاتهم.

ووجد الإمام ادريس الثاني نفسه ملزماً في استرجاع ما فقد من امارته أيام حدائقه، فأخذ يجهز الجيوش ويرسلها إلى مختلف المناطق لإعادتها إلى حظيرة الدولة، إلى جانب استكمال مهمة أبيه من قبله في نشر الإسلام بين المصامدة وسكان نفيس وأغصت سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م، الذين كانوا على الوثنية إلى جانب المسيحية واليهودية^(١٨).

وفي نهاية القرن الثاني للهجرة - التاسع الميلادي - خرج الإمام ادريس الثاني على رأس جيش كبير إلى تلمسان لمحاربة القبائل الصقرية من البربر، وقد أبدى من الشجاعة ما أثار إعجاب رجاله، ويذكر البكري ما قاله داود بن القاسم بن

وتنائي المغرب عن المشرق ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب^(١٩)... فأشار عليه وزيره بتدبير الحيلة لاغتياله، فأرسل له الخليفة هارون (١٧٠ هـ - ١٩٣ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م) سليمان بن جرير^(٢٠) الذي اغتاله بواسطة السم في ربيع الآخر^(٢١) سنة ١٧٧ هـ/٧٩٣ م خوفاً من أن يستفحل أمره ويستولي على المغرب وافريقية، ومات بعد أن ترك زوجته كنزة بنت اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي حاملاً.

في هذه الفترة قام مولاه راشد بتدبير الأمور إلى أن وضعت كنزة حملها في ٣ من رجب ١٧٧ هـ/٧٩٣ م فكان ولداً شبيهاً بأبيه فسماه ادريس، وقام بتربيته والعناية به^(٢٢)، وفي فترة الحمل والوصاية عليه أيام حكم راشد انفصلت بعض الولايات المغربية التابعة للدولة ادريسية لأسباب نجلها.

وساءت العلاقات بين الأدارسة والأغلبية في القيروان بتونس، الذين أقطعهم الخليفة هارون الرشيد أرض الزاب بالمغرب الأدنى عام ١٨٤ هـ/٨٠٠ م ليقفوا سداً أمام الأدارسة^(٢٣) والخوارج. أما الامام ادريس بن ادريس فلم يبايع إلا بعد ما بلغ الحادية عشرة من عمره، بعد مقتل مولاه راشد سنة ١٨٦ هـ/٧٩٢ م، بتكليف ابراهيم بن الأغلب أحد البربر الذي اشترى ذمته بالمال، فقام^(٢٤) بقتله وجرّ رأسه وأرسله الى ابراهيم الذي ظن بأن قتله سيؤدي إلى حدوث الفتن والاضطرابات في البلاد، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل فسرعان ما عادت الأمور إلى مجراها بتعيين وصي جديد بدلاً منه، هو أبو خالد يزيد بن الياس العبدى الذي أخذ له البيعة مرة أخرى من القبائل

(١٧) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ط - فاس الحجرية سنة ١٨٨٥ م، ص ٨.

(١٨) اختلف المؤرخون في اسم سليمان بن جرير، فقال بعضهم، سليمان بن جدير وقيل سليمان بن جرير، كما اختلفت الروايات فيمن سمه، فقيل الشماخ المشماسي مولى المهدي الذي سقاه سماً أسقط أسنانه فمات من قوته، وقيل سليمان بن جرير الرقي. راجع، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيرة، تحقيق - حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر مصر القاهرة ط (١) ١٩٦٣، ص ٥٢، عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الوسيط، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(١٩) اختلف فيمن دبر قتله من خلفاء بني العباس، فاليعقوبي يرى أن موسى الهادي هو الذي أمر باغتيال ادريس، علماً بأن وفاة موسى الهادي كانت سنة ١٧٠ هـ/ راجع، اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت د - ت، ج ٢، ص ٤٠٥، عن وفاة موسى الهادي، راجع، ابن عماد الحنبلي، أبو فلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار احياء التراث العربي - بيروت د - ت، ج ١، ص ٢٧١.

(٢٠) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٢١) البكري أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر - البارون دي سلان، الجزائر ١٩١١ م، ص ١٢١، حسن ابراهيم، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢٢) نسب محمد بن المقاتل العكي لنفسه مقتل راشد، فكذب ابراهيم بن الأغلب وأرسل يخاطب الخليفة هارون الرشيد بقوله:

ألم تُرني اهلكت بالكيد راشداً وانى بأخرى لابن ادريس راصد
فتاه أخوعك بمهلك راشد وقد كنت فيه ساهراً وهو راقد.

راجع، ابن الخطيب، أعمال الأعمال، ص ١٦٢، السلاوي أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - القاهرة ١٨٩٤ م، ج ١، ص ٦٨، عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الإسلامي، ص ٢٨٩.

(٢٣) السنوسي محمد بن علي، الدرر السنوية، ص ٦٠، ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١ م، ج ٤، ص ٢٥.

(٢٤) السلاوي، الاستقصا، ج ١، ص ٦٨.

وأقلق هذا التطور السريع لدولة الأدارسة إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية الذي حكم البلاد من سنة (١٨٤ - ١٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٨١١ م) وأزعجه انتشارها السريع في بلاد المغرب فأخذ يشنّ بصاحبها الإمام ادريس^(٢٥) الثاني، ودخل معه في صراع سلبي طويل، بحيث أصبح يهدد دولته في عقر داره، وقد تمكن بدهائه أن يؤلب عليه أصدقاءه، فأغرى وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغري بالمال، ففارقه ودخل في طاعة بني الأغلب، فأرسل إليه الامام رسالة تهكمية وفيها بعض الأبيات الشعرية منها:

أبهلول قد شمتت نفسك خطة
تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره
فأصبحت منقاداً لغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن الأغلب
وقدماً رمى بالكيـد كل بلاد
ومن دون ما ممتك نفسك خالياً
ومناك إبراهيم شوك قتاد^(٢٦)

وبهذه التدخلات والاستفزازات من قبل بني الأغلب أصبح ادريس الثاني يرتاب من بعض أعوانه منهم أبو ليلى اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م الذي تواطأ مع الأغلبية.

وتشير بعض المصادر أن إبراهيم بن الأغلب قد عزم على قتله فنهاه أصحابه قائلين له: (اتركه ما تركك)^(٢٧)، ويذكر أنّ الإمام ادريس الثاني أرسل له رسالة يذكره بقرابته من رسول الله ﷺ، وفي نهايتها أبيات من الشعر:

أذكر إبراهيم حق محمد
وعترته، والحق خير مقول
وإدعوه للأمر الذي فيه رشده
وما هو لولا رأيه بجهول

اسحق بن عبد الله بن جعفر عنه، قال: «كنت مع ادريس بن ادريس في المغرب، فخرجت معه يوماً إلى قتال الخوارج، فلقيناهم وهم في ثلاثة أضعاف عدنا، فقاتلناهم قتالاً شديداً، فأعجبني ادريس ذلك اليوم، وجعلت أديم النظر إليه، فقال ويحك، لم توالي النظر إليّ، قلت لخصال، أمّا أولها فإنك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقي فلا أجده، قال: ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقتك لذهاب عقلك، قال، قلت: والثانية، لما أرى من منتك قال أنّ النبي ﷺ، صلى علينا قلت: والثالثة، لما أرى من حركتك وقلة فرارك على الدابة...»^(٢٨).

وبالجملة فقد تمكن من تثبيت نفوذه في هذه الناحية، وبقي في مدينة تلمسان ثلاث سنوات، ينظم شؤونها، ويقضي على الخارجين عن طاعته من القبائل الضاربة حولها، قصد تأمين حدود دولته الشرقية من خطر الرستميين أصحاب تاهرت، وخض شوكة قبيلة^(٢٩) «نفزة» البربرية التي تعد من أقوى العصبية التي تساند امامة تاهرت وتدافع عنها. لكن الرستميين تصدّوا لهذه الغارات، وقاوموهم بشدة، ولم يتركوا المجال للتغلغل في أراضيهم وأبوا الاندماج بدولة الأدارسة. ولعل هذا هو الذي دفع بالأدارسة أن يحولوا أنظارهم شطر الشمال ويتجهوا إلى المناطق الساحلية بالمغرب الأوسط ووادي شلف، فأنشأوا سوق حمزة (البويرة اليوم)، وسوق إبراهيم^(٣٠)، وغيرهما من الأسواق والمدن بعيدين عن الأراضي الرستمية، دون أن يتعرضوا إلى الاقاليم الداخلية التابعة لإمامة تاهرت، حتى لا يصطدموا بهم، ويظهر من خلال هذا التحول، أن الأدارسة سلكوا مع بني رستم سياسة حسن الجوار والمسالمة قصد منعهم من الوصول إلى الساحل خوفاً من نشر مبادئهم واتقاء لشركهم. وبهذه السياسة والاجراءات الوقائية التي اتخذها ادريس الثاني لنفسه ودولته، انتظمت له طاعة أهل المغرب الأقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط^(٣١).

ويشير صاحب الاستقصا عن نفوذه فيقول: (... وأقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف)^(٣٢).

(٢٥) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ١٢٢، ابن الخطيب، الاعلام، ص ١٩٨.

(٢٦) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٢٧) ما زالت المدينتان قائمتين للآن، مشاهدات الباحث.

(٢٨) الاستقصا، ج ١، ص ٧٥.

(٢٩) الاستقصا، ط الدار البيضاء - المغرب ١٩٥٤ م، ج ١، ص ١٥٥.

(٣٠) كان الأمير إبراهيم بن الأغلب يقدر في نسب ادريس الثاني، ويعلق صاحب كتاب دولة الأدارسة بأن قوله كان أو هي من خيط العنكبوت ونحن معه في هذا القول، أمّا جويته، فيقول أن من الطبيعي أن يكون المولود ذكراً، بمعنى لو جاء بنتاً كان من الممكن تدبير الأمر، لكننا لا نوافق على قوله لأنه ليس بالضرورة أن يكون ذلك، راجع، العربي اسماعيل دولة الأدارسة، ص ٧٦ - ٧٧، هامش رقم (٢)، ص ١١٨.

(٣١) بونار - رابع، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للطباعة والنشر الجزائر سنة ١٩٨١، ص ١١١.

(٣٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٢٥.

فإن أثر الدنيا فإن أمامه

زلازل يوم للعقاب طويل^(٣٣)

فكف عنه، ولكن يبدو أن الأغلبة لم يكونوا جادين في القضاء على الدولة الادريسية لأنهم رأوا فيها وسيلة لتثبيت سلطانهم في القيروان يهددون بها خلفاء بني العباس فيما إذا حدث ما يشوب العلاقات بينهما، ويظهر جلياً عندما أرسل الخليفة العباسي المأمون للأمير أبي العباس^(٣٤) بن ابراهيم بن الأغلب عقب وفاة أخيه أبو العباس عبد الله سنة ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م وخلعه أخوه زيادة الله صك التولية في نفس السنة، الذي بموجبه تولى زيادة الله الأول الامارة^(٣٥)، وبقي مخلصاً لدار الخلافة ببغداد حتى في ظروفها العصيبة، فلم يخرج عن ولائه للمأمون أبان اندلاع فتنة ابراهيم بن المهدي في بغداد، وقدّر له الخليفة اخلاصه فشكره على موقفه بعد انتهاء الفتنة، إلا أن علاقة الود ما لبثت أن تعرضت لهزة عنيفة حين حاول المأمون الانتقاص من شأنه والتدخل في شؤونه لكن جهوده لم تكلل بالنجاح، فقد أراد مكافأة عبد الله بن الطاهر - الذي حقق له الظفر على الأمين - فأسند إليه ولاية مصر والمغرب. وكتب إلى زيادة الله يأمره بالدعوة لعبد الله بن الطاهر على منابر المساجد^(٣٦) بأفريقية، وبهذا تفقد افريقية استقلالها الذاتي وتصبح تابعة لمصر، فرفض زيادة الله طلب الخليفة ولم يفرط بما حافظ عليه والده وأخوه.

ويصور ابن الأبار غضب زيادة الله حينما وصلته ريسول الخليفة فيقول: (... وأمر - زيادة الله - بإدخال الرسول عليه بعد أن تملأ من الشراب، وحلق شعره، وتار عزيمة بين يديه في كوانين، وقد احمرت عيناه، ثم قال: وقد علم أمير المؤمنين طاعتي له، وطاعة أبائي لأبائه، وتقدم سلفي في دعوتهم، ثم يأمرني الآن بالدعاء لعبد خزاعة، هذا والله أمر لا يكون أبداً^(٣٧)). وكتب زيادة الله رسالة إلى الخليفة يرفض فيها الأمر، ويخبره بأنه سيدافع عن حقوقه حتى لو أدى الأمر إلى اندلاع الحرب بينهما. وأرفق بالرسالة كيساً به ألفا دينار ادريسية^(٣٨)، لذلك لم يجد الخليفة

بدأً من التخلي عما أمر به، متجاهلاً ما ورد برسالة الأمير الأغلب من خروج على المؤلف في مراسلة الخلفاء ورضي ببقاء الأمور على ما هي عليه بأفريقية^(٣٩).

ومجمل القول اتجه الإمام ادريس الثاني نحو الجنوب بعد اخضاعه لمدينة تلمسان، فاستولى على شالة والسوس لأهميتهما الاستراتيجية والاقتصادية حيث كانت الأخيرة تسيطر على الطرق التجارية المتجهة من الصحراء نحو الشمال والشرق^(٤٠)، وأصبحت حدود مملكته تمتد من سلاسل جبال الاطلس الأعلى في جنوب مراکش إلى درعة التي تمثل مناجم الذهب، وبهذا المعدن الثمين استطاع تنفيذ مشروعاته التوسعية ورفع المستوى المعيشي لمواطنيه، كما ضمن لنفسه موانئ المحيط الأطلسي وثر سبته وطنجة المطّين على المضيق تمهيداً لدخوله إلى الأندلس لكن المنية عاجلته وحالت دون تحقيق أهدافه^(٤١).

أما فيما يخص العلاقات الدبلوماسية مع قرطبة، فالظاهر أنها بدأت طيبة في أول الأمر لأن الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ - ٨٢٢ م) أمير الأندلس، أراد أن يستغل فرصة عداة الإدارة للدولة العباسية، وأمراء القيروان، ولا سيما أن كلاً من الأمويين في الأندلس، والإدارسة في المغرب الأقصى، يشتركون في عداة بني العباس، فرغب الحكم بن هشام في مواصلة الإمام الادريسي، وفتاحه في بناء علاقة طيبة ومتينة بين البلدين لمواجهة خصومهما الأغلبة الذين يهددون أمنهما، ويحاولون تقليص نفوذهما. وعلى الرغم مما تميزت به هذه العلاقة من الود والصدقة بين الأمير الأندلسي والإمام الإدريسي^(٤٢)، والتي جرى توثيقها بواسطة سفارة الحكم إلا أن أمد هذه العلاقة كان قصيراً، فسرعان ما تلاشت وبطل مفعولها وتحولت إلى عداة بسبب استقبال ادريس الثاني لعدد من الفرسان الأندلسيين الفارين من الأندلس سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٤ م الساخطين على الحكم بن هشام والذين يمثلون النخبة الأرستقراطية العربية بقرطبة^(٤٣).

(٣٣) حمادة - محمد ماهر، الوثائق السياسية، ص ١٢٧.

(٣٤) الباجي محمد المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، تونس ط ١٢٨٢ هـ/ ص ٢.

(٣٥) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدا والخبر، ط - بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ، ج ٤، ص ١٩٧.

(٣٦) نفس المصدر، ص ١٩٧.

(٣٧) ابن الأبار، أبو عبد الله محمد، الحلة السرياء، نشر - مولر - فرانز ط ١٨٠٦ م، ص ٢٥٤.

(٣٨) يلفت نظره بأنه سيدعو للإدارسة ويتحول عن بني العباس.

(٣٩) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ١٩٧.

(٤٠) العروي عبد الله، تاريخ المغرب، ص ١١١.

(٤١) اسماعيل العربي، دولة الإدارسة، ص ١١٩.

(٤٢) ابن تاويت التطواني، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، مدريد ١٩٥٧، ج ٥، ص ١٦.

(٤٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٤.

ويعد مجيئهم الى مدينة فاس مكسباً للإمام ادريس الثاني، الذي كان يشعر بالوحدة والعزلة منذ نعومة اظفاره بسبب وجوده بين رؤساء القبائل البربرية، الذين أخذ يرتاب منهم بعد توليه الحكم، ولذا نجده، لم يتوان في احتضان هؤلاء الفرسان، القادمين^(٤٤) من قرطبة أو القيروان، واسناد الوظائف السامية في الدولة اليهم، وجعلهم من بطانته، مما أوغر صدور زعماء البربر من وزرائه وندمائه الذين أحسوا بفقدان امتيازاتهم، فمالوا إلى ابراهيم بن الأغلب، وانضم إليه وزيره بهلول بن عبد الواحد المطفري بمن معه من قومه، وتآمر معه أبو ليلى اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي الذي أحس به الإمام، فدس له من قام بقتله على يد وزيره مصعب بن عمير^(٤٥).

وأما الحدث الثاني الذي أثر على العلاقات بين فاس وقرطبة، فهو استقبال الإمام ادريس الثاني للمنفيين الربضيين^(٤٦) الأندلسيين على أثر فشل الثورة التي قاموا بها ضد الأمير الحكم بن هشام سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٨ م، وكان معظمهم من المولدين الذين أرادوا أن يكون لهم صوت مسموع في المجتمع الأندلسي لشعورهم بالغبن بسبب وضعهم الاجتماعي والسياسي^(٤٧)، واستقر هؤلاء الوافدون في أول الأمر بين القبائل المغربية في جبال الريف القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وصادف هذا الحدث احتياج ادريس الثاني إلى سكان يعمرّون مدينته الجديدة - العالية، وتوسيع المدينة التي أسسها والده من قبل. ولهذا الغرض رحب الإمام ادريس الثاني بقدوم الربضيين المنفيين، وتشجيعهم على الإقامة في مدينته العالية ومدينة فاس^(٤٨)، مما أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين وأصبحت تنذر بالانفجار والحرب، فقد أصبح الأمير الحكم بن هشام يخشى امتداد نفوذ الأدارسة إلى بلاده، أو تدعيم التأثيرين عليه، ولهذا يعتقد أن خوفه دفعه إلى عقد هدنة مع الامبراطور

الكارولنجي (شارلمان) ملك الفرنجة دامت حتى سنة ٨١٤ م، حتى يتمكن من حد الانتشار العسكري والمذهبي العلوي في بلاد المغرب، ويعمل على منعه من العبور إلى أرض الأندلس هذا من جهة^(٤٩)، ومن جهة أخرى قام بمحاولة لتهدئة الوضع في الداخل، فكتب كتاباً إلى جميع عماله في إمارته يبين فيه أسباب ثورة أهل الربرض ويشرح لهم ظروفها، طالباً منهم قراءتها على المنابر والرسالة طويلة تقع في ثلاثين سطراً^(٥٠).

أما عن تنظيمات الدولة الادريسية، فقد قام الإمام ادريس الأول بتعيين أقاربه على الولايات المغربية التي خضعت لسلطانه، فعين أخاه سليمان بن عبد الله أميراً على تلمسان بالمغرب الأوسط، ومع رغبته في جعل ولاته من أقاربه إلا أن زعماء قبيلة أوربة الذين ناصروه كان لهم نفوذ كبير في رسم وتنفيذ سياسته، مما جعل جهوده في تنظيم دولته غير واضحة رغم بذله جهداً كبيراً في سياسته الداخلية على حساب توسعته العسكرية. وبعد وفاته في ربيع الآخر ١٧٧ هـ/ ٧٩٣ م وقيل ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م تولى الإمامة من بعده ابنه ادريس الثاني الذي قام بعدة أعمال على مختلف الأصعدة^(٥١)، فمارس القضاء الذي كان فيه ملازماً للحق، جارياً على قانون الشريعة في الأحكام، لا يعدل عن الحق ولا يتحرف عن السنة، فكان يأخذ الجزية وزكاة الأموال حسب ما نصت عليه الشريعة، وكانت الغنائم التي تأتيه يقوم بتقسيمها إلى أربعة أخماس على المجاهدين، ويصرف الخمس فيما تحتاجه مرافق الدولة، وانتشر صيته بين الناس فتقاطرت الوفود من مختلف المناطق المغربية لبيعته والعيش تحت كنفه، ثم ترك القضاء، وعين بدلاً منه القاضي عامر بن سعيد بن محمد القيسي^(٥٢) الأندلسي الذي ترأس دار القضاء بمدينة وليلي، فكان يقضي بين الناس، ويقوم بتطبيق الشرائع والأحكام، وقد اختلف المؤرخون في مذهبه، فعده البعض مالكياً، وقيل أنه كان على

(٤٤) ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب - عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح، ط - إدارة الثقافة - د - ت، ص ٢٧، العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٧٦ - ٧٧.

(٤٥) ابن خلدون، العبير، ط بيروت ١٩٦٨ م، ص ٥٢.

(٤٦) الربرض كلمة عامية تعني الضاحية أو الحي والجمع أرباض، وعندما تسلم هشام بن عبد الرحمن الأموي زمام الحكم أعاد بناء القنطرة الرابطة بين قرطبة وضة الوادي الكبير الجنوبية، حيث الأرباض الجنوبية، ولما تمت إعادة بنائها امتد العمران إلى ضفة النهر الأخرى الجنوبية، وأنشئ فيها حي عرف بالربرض، ونظراً لقرب هذا الربرض من الجامع وقصر الإمارة ومن السوق أو الطريق الرئيسي للمدينة، فقد فضل أن يسكنها التجار والطلبة والفقهاء وأصحاب الحرف الأخرى، راجع، العبادي - أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، د - ت، ص ١٣٠.

(٤٧) المقرئ التلمساني، نفح الطيب بن غصن الأندلس الرطيب، تحقيق - احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨، ج ١، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٤٨) الجزنائي - علي، جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، الطبعة الملكية - الرباط سنة ١٩٦٧ م، ص ٢٦.

(٤٩) L, Provensal, Islam, Occident La Fondation de Fes, T 1, Paris, 1948, P. 249، العبادي - أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، سنة ١٢٨١ هـ/ ١٩٦٩ م، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٥٠) حماده - محمد ماهر، الوثائق السياسية، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٥١) السنوسي، الدرر السنية، ص ٦٠.

(٥٢) نفس المصدر، ص ٦٢ - ٦٣، العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٧٧.

امارته، ومما يزيد هذه القبائل أهمية في نظره، أنها لا تنتمي كلها إلى قبيلة عربية واحدة، بل أنها تنتمي إلى مجموعة من القبائل أهمها، الأزدي، ومدلج، وبنو يحصب، والقيسية، والصدف وغيرهم^(٥٢)، وكان قدومهم بداية سبل من الهجرات العربية من الأندلس وأفريقية ساعده على ذلك الاضطرابات في الأندلس وأفريقية، وثورات الجند في الأخيرة ضد حكام بغداد، ولعل في هجرتها تعبيراً عن رفضها لسياسة الأمويين والعباسيين، وتأييداً للعلويين. وقد سر الامام ادريس بقدمهم وأجزل لهم العطاء^(٥٣).

أما عن منجزاته المعمارية، فقد جدد بناء سور تلمسان بعد أخذها صلحاً في أواخر عام ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م وأوائل عام ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م، وبنى جامعها وصنع بها منبراً كتب عليه «هذا ما أمر به ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة»^(٥٤). وأصلح أحوالها المعمارية والعسكرية.

أما عن تجديد بنائه لمدينة فاس فهناك أسباب عدة دفعت لتجديد بنائها منها: أن تكون مكاناً لعبادة الله ومركزاً لنشر دينه كما جاء في خطبته قوله: اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها»^(٥٥). فلم تزل منذ بنيت دار علم وفقه وسنة، والجماعة بها قائمة، وقد أمها عدد من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم فكانت وما زالت دار فقه وعلم وحديث ولغة، وفقهاؤها هم الذين يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب.

أما الجانب السياسي فقد سلك فيه ما سلكه غيره من الحكام المسلمين عندما يتولى أحدهم الحكم، يشرع في بناء عاصمة له وفي ذلك إشارة إلى تغيير في السياسة التي سوف ينتهجها الحاكم، إلى جانب موقعها المتميز الذي هو عبارة عن سهل فسيح يمتد ما بين جبل زهون وجبل الحجاب (جبل زالخ)، وكان لاتساع رقعة المكان واعتدال الهواء وكثرة الماء فيه^(٥٦)، وخصب

مذهب سفيان الثوري، وقيل على مذهب الأوزاعي الذي كان معمولاً به في المغرب والأندلس مع رأي الكوفيين قبل وصول مذهب مالك الذي حل محله، ويحتمل أن يكون عامر هذا مجتهداً مستقلاً لم يتقيد بمذهب^(٥٧).

أما كاتبه، فكان أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي الأنصاري^(٥٨)، ووزيره عمير بن مصعب الأزدي الملقب بالملجوم الذي كان من فرسان العرب، وسادتهم، وكان لأبيه دور بارز في حرب البربر بأفريقية والنصارى بالأندلس^(٥٩)، يساعده في عمله وزير بربري اسمه بهلول بن عبد الواحد المطغري، السابق الذكر والذي التجأ إلى عند الأمير ابراهيم بن الأغلب القيروان عندما استقل عمير بن مصعب بالوزارة وعمل معه عدد ممن استعان بهم الإمام ادريس الثاني في تسيير الأمور الدنيوية^(٦٠).

أما على الصعيد العسكري، فقد قام الإمام ادريس بتقوية جيشه، واغداق الأموال على أتباعه من المشايخ والرؤساء، ومع هذا ظلت أجهزته العسكرية ابتدائية، تعتمد على الأسلاب والغنائم، وعلى الجزية والخراج^(٦١).

واصطبغ الجيش الادريسي بالصبغة القبلية، وكانت لديه قوات خاصة تقوم بحمايته وبنشر الأمن في ربوع دولته من العرب الوافدين عليه من القيروان وقرطبة^(٦٢)، كما وفدت عليه جماعة من أنصاره ممن كانوا يقيمون في العراق، وضافت مدينة وليلي بالقاديين، فوجد نفسه مضطراً لبناء مدينة جديدة تتسع لهم، إلى جانب اقتناعه بعدم جدوى بقاءه في هذه المدينة موطن قبيلة اوربة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى الضاربة حولها، ووقع اختياره هو وأهل مشورته على المكان الذي أقيمت عليه مدينة فاس زمن أبيه الإمام ادريس الأول، وأصبحت القبائل العربية القادمة من القيروان عاصمة الأغلبية بأفريقية، ومن قرطبة حاضرة الأمير الحكم بن هشام الأموي تمثل نواة الإدارة العربية التي ينشدها ليخرج بوساطتها من عزلته، ومن وصاية قبيلة اوربة عليه، وليخلق التوازن المطلوب بين العرب والبربر في

(٥٢) من اقناب المذهب المالكي في المغرب، ابن زياد، والبهلول، وابن راشد، واسد بن الفرات الذي أتى بعدهم، أما الأندلس فكان أبرز علماء المالكية فيها هما

زيد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس. راجع، الجزناني، جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس - المطبعة الملكية الرباط ١٩٦٧، ص ٢٠.

(٥٤) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٤٢.

(٥٥) عبد العزيز - سالم، تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي، ص ٣٩٠.

(٥٦) العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٧٧.

(٥٧) العروي - عبد الله، تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان قرقوط، ص ١١٢.

(٥٨) جولييان - أندري شارل، تاريخ افريقيا الشمالية، ص ٥٦.

(٥٩) العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ٧٦ - ٧٧.

(٦٠) السنوسي، الدرر السنوية، ص ٦١ - ٦٢، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٦١) الدرر السنوية، ص ٧٣.

(٦٢) راجع، الجزناني، جني زهرة الأس، ص ٢٦، الدرر السنوية، ص ٧٠، حسن ابراهيم، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٦٣) حسن ابراهيم، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٨٧.

التربة، والقرب من نهر سبو بمياهه العذبة، والحمامات الساخنة المعروفة بحمة خولان المسماة اليوم بسيدي حرازم، مع توفر مواد البناء في هذه المنطقة، ووجود الثروات الطبيعية وما نتج عنها من ظهور صناعات متعددة إلى جانب ثروتها السمكية والحيوانية وموقعها على البحر المحيط^(٦٤)، ونهر سبو الذي يمر بالمدينة فيربطها بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، حيث تقع المدينة عند ملتقى أكبر طرق القوافل في المغرب كله: الطريق القادم من الجريد عبر تلمسان متجهاً إلى المحيط الأطلسي، والطريق المتعرج الذي يخترق جبال الريف والمتجه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والأندلس، وأخيراً الطريق المار بمضائق سلسلة جبال الأطلس المتوسط والمتجه إلى سجماسة ثم إلى الصحراء الكبرى^(٦٥). كل هذا كان حافزاً لتوسيع المدينة في المكان الذي بنيت فيه من قبل في عهد أبيه، وإن كان هذا الأمر مختلفاً فيه عند المؤرخين، كما اختلفوا في سبب تسميتها، ولهذا أثرت عدم الخوض فيه، وفي تقسيمها وخطتها مرجئين الأمر إلى بحث مستقل.

والواقع أنَّ أهمية المدينة لا تعود إلى ما فيها من مساجد وقصور وأسواق فحسب، بل إلى رسالتها الحضارية المتمثلة بالرسالة الإدريسية العلوية الهاشمية في بلاد المغرب الأقصى والمد الثقافي الذي حمله معهم المهاجرون من مدينتي قرطبة والقيروان، فالمناطق الواقعة ما بين الأطلسين - المتوسط والكبير - وما وراءهما ظلت منعزلة عن التيارات الحضارية الإسلامية التي وصلت إلى المغرب الأقصى وتركزت في الشواطئ المغربية التي كانت معبراً إلى البلاد التونسية، ورغم ذلك فإنها لم تنعم بالاستقرار لكثرة الثورات والاضطرابات التي قام بها الخوارج، وما نجم عنها من تخريب مادي. فكان الفضل في إقامة الدولة الإدريسية التي استبدلت المحبة بالخصومة في هذه المناطق، وعملت على نشر الإسلام واللغة العربية في المناطق الوسطى والجنوبية^(٦٦)، وبعد وصول القبائل العربية من القيروان وقرطبة وغيرها من الأقطار وما صاحبها من علماء وفقهاء ممن هضموا القيم الإسلامية في الشرق وفي الأندلس، أمثال يحيى بن يحيى

الليثي صاحب مالك وأحد رواة (الموطأ) وغيره من العلماء الاجلاء من أصحاب مذهب مالك الذين استوطن قسم منهم مدينة الاسكندرية بمصر، والقسم الآخر رحل إلى عند الإمام ادريس الثاني واستقر بفاس، وغدت هذه القبائل وسيلة إشعاع لنشر الفكر الإسلامي واللغة العربية بين البربر حتى أصبح من السهل عليهم فهم النصوص الإسلامية وتقبل الأحكام الشرعية، وظهور علماء من البربر سهلوا السبل في انتشار الدعوة الإسلامية وفهم أحكامها، وتعليم اللغة العربية لأبناء جلدتهم^(٦٧). ورعوا في عملهم هذا مذهب أهل السنة وتمسكوا بمذهب مالك^(٦٨) على الخصوص وهذا ما يدل دلالة واضحة على أنَّ الدولة الإدريسية العلوية الهاشمية كانت سنية المذهب بعيدة عن مذاهب الفرق الإسلامية الأخرى^(٦٩).

والملاحظ أن العلاقات الثقافية بالمغرب والأندلس لم تتأثر بالخلافات السياسية، والدليل على ذلك ازدهار المذهب المالكي الذي اتخذ من القيروان قاعدة له، يشع منها على جميع أنحاء المغرب ومن ضمنها الولايات التابعة للدولة الإدريسية، فكان لمدرسة القيروان تأثير كبير في مدارس الأندلس سواء الفكرية منها أو الفنية، فكانت المرحلة الأولى من عمر الدولة الإدريسية متأثرة بالعنصر القيرواني، ولكن فيما بعد انفتحت فاس على مختلف ألوان الحضارة الأندلسية، فكان مستشارو ادريس الثاني وقاضيه ووزيره منهم، وكان الربضيون المنفيون من الموأدين من أمهات اسبانيات، وأباء مسلمين معظمهم من المزارعين وأهل الحرف المختلفة ورجال العلم ممن تمثلت فيهم مظاهر الحضارة الأندلسية، فأعطوا للمدينة مظهراً جديداً يغلب عليه الطراز الأندلسي الجميل، سواء في الصناعات المختلفة أو في شكل الأبنية الجميلة ذات اللون الأبيض الناصع، أو في انشاء الحدائق المنزلية الجميلة، ويبدو هذا واضحاً في القسم الشرقي من مدينة فاس المسمى بعدوة الأندلسيين، والذي ما زال أثره قائماً للآن^(٧٠).

وأما مدينة العالية الواقعة في القسم الغربي من مدينة فاس والمسماة بالقرويين نسبة لمدينة القيروان، فقد انطبع الفن

(٦٤) سعد زغلول، تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٤٤٥.

(٦٥) العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ١١٠ - ١١١.

(٦٦) جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج ٢، ص ٥٨، سعد زغلول، تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٤٥٢، العربي - اسماعيل، دولة الأدارسة، ص ١١٩.

(٦٧) المقرئ التلمساني، نفع الطيب، ج ١، ص ٢٣٩، العبادي - أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٦٨) بسبب تعاطفه معهم مما عرضه إلى الاضطهاد من قبل العباسيين. راجع، المودودي أبو علي، الخلافة والملك، تعريب - أحمد ادريس، دار القلم الكويت، ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ص ١٨٢.

(٦٩) الدرر السنية، ص ٤٥ - ٤٦.

(٧٠) راجع، المقرئ التلمساني، نفع الطيب، ج ١، ص ٢٣٩، جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج ٢، ص ٥٨، الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب عبد العزيز سالم، محمد صلاح، ص ١٧٠ - العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨ وما بعدها.

والملاحظ أنّ الإمام ادريس الأول كان قد بدأ بتكوين حضارة للدولة عوضاً عن مدينة ويلي البربرية وخاصة البدوية منها، وبتولي ابنه الإمام ادريس الثاني الحكم توافدت عليه القبائل العربية من القيوان وقرطبة وغيرها من الأماكن الأخرى فأحسن اليهم، وسلّمهم العديد من مناصب الدولة ممّا أوغر صدور البربر، فأصبح من اللازم عليه البحث عن مقر جديد للإمامة، فوقع اختياره على مدينة فاس الذي قام أبوه بتأسيسها فعمل على توسيعها حتى أصبحت رمزاً حضارياً وثقافياً وسياسياً، تمثل في نشر الاسلام واللغة العربية في المغرب، وأصبحت القبائل البربرية الضاربة حول المدينة تتكلم اللغة العربية، وتقاطرت الوفود العلمية صوب المدينة، وقصدها التجار بقوافلهم التجارية المحملة بمختلف البضائع والأمتعة، وأصبح أهلها على جانب كبير من الرخاء^(٧١)، إلى جانب تقدمهم العلمي. فهي لليوم تعد منارة من المنارات العلمية في المغرب الكبير، ومركزاً حضارياً امتاز بحفظ التراث الحضاري للشعبيين المغربي والأندلسي.

المعماري فيها بطابع الفن الأغلب بالقيوان، وبرزت التجارة فيها أكثر من غيرها، وتميّزت عدوة الأندلسيين بالمهن الزراعية والصناعية. أمّا عن العلاقات الثقافية بين مدينة فاس ومدينتي سجلماسة وتاهرت مقر الخوارج من الصفرية والأباضية في المغرب، فكانت مقطوعة تماماً^(٧٢).

وبعد، ان تناولنا في الحديث الجانب السياسي والحضاري للدولة، فإنّه يمكننا القول بأن عهد الإمام ادريس الأول يُعدّ نواة التكوين للدولة، بينما يعد عصر ابنه الإمام ادريس الثاني عصر بناء وتكوين، فقد كان من مخططات الدولة الإدريسية السيطرة على المشرق، ولكنها حوصرت من قبل العباسيين عن طريق الأغالبة في القيوان، والرستمين في المغرب الأوسط - الجزائر، إضافة إلى ضعف قواها العسكرية واعتمادها على القوات البرية المكوّنة من القبائل البربرية، وعدم تملكها للأسطول مع توفر امكانية تكوينه، ووجود ثغور بحرية لها تقع على حوض البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

(٧١) عهد الامام ادريس الثاني إلى تأمين حدود دولته من ناحية الشرق ليمنع المد الخارجي الممثل بالدولة الرستمية القائمة في المغرب الأوسط، وقد استطاع بفضل جهود ابن عمه داود بن القاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر من القضاء على قبائل نفزة البربرية التي تعد من اقوى عصابات القبائل البربرية التي اعتمدت عليها الدولة الرستمية وأصبحت المناطق الممتدة من السوس الأقصى بالمغرب إلى نهر شلف بالمغرب الأوسط (الجزائر) تحت سلطانه.

راجع، سعد زغلول، تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٤٥٥، العدوي أحمد ابراهيم، بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي القامرة ١٩٧٠، ص ٢٠٤.

(٧٢) راجع، الحميري، الروض المعطار، ط ٢ سنة ١٩٨٥، مادة فاس، ص ٤٣٤.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی